بحث

الأوبئة بين الحلول والنّقول مقاربات ومقارنات في الدراسات التراثية الجامعة الإسلامية - أنموذجا -

مقدم

إلى ورشة العمل الدولية

الجمعية العراقية العلمية للمخطوطات

22/ أبريل 2020

من قبل الباحثين:

أ.د خولة حمد خلف الزيدي

أستاذة الفقه المقارن / كلية التربية الأساسية جامعة ديالى العراق.

أ.عبد القادر حسيني / جامعة أدرار الجزائر

1441هـ 2020م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وزّع الأرزاق على منطق الإرفاق، والصّلاة والسّلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أشرف الرّفاق..

اللهم لك الحمد كلّ الحمد يا راحم الضّعف و يا دائم الإحسان والرّفق واللطف

إليك مددنا الكفّ كي ما تمدّنا بما نرتجي يا مالك البسط والكف

فعاف ودافع عنا يا رب واكفنا بحفظك ما نخشاه فغيرك لا يكفي

أما بعدُ ؛ فإن الدراسات التراثية لعبت ولا تزالُ تلعبُ دوراً رئيسًا في كيانِ الأمم، ومنطلقات الشّعوب، وهي نوعٌ ركين في دراسة الماضي، وربطه مع المستجدات، واستشراف الحلول والبدائل، ولا غرو أن الناظر فيها بعين التمحيص يدرك مقاصد التأليف، وحقائق التوظيف، ومنازل التكثيف، وعوائد التّوصيف، وانطلاقا من هذه الوحدة اللّغوية، والبنية التركيبية التي تناسب تناسق حدود هذا العنوان المنتخب: الأوبئة بين الحلول والنّقول مقاربات ومقارنات في الدراسات التراثية الجامعة الإسلامية – أنموذجا – الذي ارتأى تقديمه إلى ورشة العمل الدولية التابعة للجمعية العراقية العلمية للمخطوطات الباحثان : أ. د خولة حمد خلف الزيدي ، أستاذة الفقه المقارن المساعد / كلية العلوم الإسلامية جامعة ديالى العراق.

أ.عبد القادر حسيني / جامعة أدرار الجزائر

السادة الأفاضل يشرفنا الامتثال أمام جنابكم المفخم لندلي ببعض ما جاد به المولى من فتحه و وفقنا فيه من لطفه، و رُبّ أمرٍ أتاك لا تحمَدُ الفُعّالَ فيه .. وتحمَدُ الأفعالَ، وقِسيٍّ رُميتَ عنها، فردَّت في نُحور الكُماتِ عنك النّصَالَ" .

سئل الإمام مالك رضي الله عنه عن المقرّب للقتل (الذي لم يبق من عمُره إلا ساعة واحدة) في أي عبادة يصرفها ؟ فقال: علم يتعلّمه، فقيل له: يا أبا عبد الله إنه لا يعمل به، فقال: تعلّمه أفضل من العمل به.

حوصلة عامة لموضوع الدراسة

المحور (1): نسق الكتابة التاريخية

إن الحديث عن نسق واحد في الكتابة التاريخية المعاصرة قد أضحى أمرًا متجاوزًا، إذ قد حدثت الكثير من الهزات القوية في الكتابة التاريخية المعاصرة أدت إلى انتقالها من التّأريخ للسلطة السياسية والصراعات البينيّة، إلى التأريخ لوجود الانسان في كينونته الحقيقية، وجعلُ هذا الكائن بإنسانيته مركزا محوريا تبنى على وفق أساسيات الفهم الواعي للتاريخ، وقد تمظهر هذا الأمر في تغيير اتّجاه البوصلة التاريخية من السّرد التاريخي الجاف، إلى طرح تاريخي جديد يدّعي معالجة المجتمع الإنساني من تلكم التّداعيات التي تختلج طريقه، وتعتري سبيله، وما داء كورونا عنا ببعيد، مثلما حاول هذا النوع من الكتابة التاريخية إبراز العلاقة القوية التي تربطُ التاريخ بباقي حقول العلوم الاجتماعية والانسانية عامة، سواء ما تعلّق منها بالدراسة اللامادية للإنسان؛ كما تقرّر في اصطلاح تخصّصها، أو ما تقرّر بدراسة الإنسان وموضوعاته العامة كالطب، وغيرها.

المحور (2): الكتابة التاريخية المعاصرة

إذا كان الأمر كما قدّمنا سالفًا من الواجب علينا أن نقول أن الكتابة التاريخية الحديثة قد صارت مواكبة لنسق جديد تجاوز الطرح السّطحي للأحداث، بل صارت تسعى لبسط مسائل عميقة بشكل أفقي أكثر منها عمودي، على خلاف ما قيّدته أنماطُ النصوص القصصية القديمة في الدروس التاريخية، وهذا عينُ ما يمكنُ تعليلُ تركيز الأبحاث على البُنيات الاجتماعية الخفية لدى الناس، وتنبّه الدور الرئيس والعميق الذي تلعبه بعض الأزمات الاجتماعية في مسار التاريخ الطويل، وهو عينُ انتخابنا واختيارنا لموضوع الأوبئة بين الحلول والنّقول مقاربات ومقارنات في الدراسات التراثية الجامعة الإسلامية – أنموذجا –

حتى نسهم بانتقال علم التاريخ من حيز القصصية الجافة إلحيز الوظيفية التي تفرض الوقائع، وتلامس الفئات الاجتماعية بمكوناتها المادية والفكرية والروحية على الأخبار السّردية التي ضمنها أصحاب الكتب التراثية التي سيأتي بيانها إجمالاً.

المحور (3): التاريخ كأداة لبناء الذاكرة الجماعية

لعلّ من أرقى ما ظهر في هذه الجزئية هو تلكم الدراسات التاريخية التي عملت في جوهرها على تصحيح مدارات البحوث باتّجاه التاريخ الأنثروبولوجي، والتاريخ الديمغرافي، وتاريخ الذهنيات، وغيرها من المضامين الجديدة التي حاولت إقحام الدّراسة التاريخية في شقي الحياة

العامة والخاصة، وبلورتها لتأطير الحياة الفكرية، إذ لا تكادُ تخرجُ أغلب المصنفات التراثية الخاصة بالجامعة الإسلامية عن جمالية هذا العنصر؛ وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على النظريات العربية التاريخية العميمة، التي تنبع بالأصالة، فإذا كانت النظريات المستحدثة قد توصلت إلى وظيفية علم التاريخ، وجعله أكثر ملامسة للواقع البشري، فلعلّ الدرسات الإسلامية على وجه العموم والعربية منها على وجه الخصوص في العجلة التأليفية، قد كانت سبّاقة إلى فرض هذا الموضوع، والتّشوف إلى ريادة مادة التاريخ في شتى التخصصات حتى الطبية منها، وإدارتها للأزمات حتى الصّحية منها.

المحور (4) : ضبط الرسوم التعريفية للعنوان المنتخب

الأوبئة بين الحلول والنّقول مقاربات ومقارنات في الدراسات التراثية

الجامعة الإسلامية – أنموذجا –

1)- مُعظم الكتب التراثية العربية التي اهتمت بالتعريفات اللغوية ذهبت إلى القول بأن الوباءَ هو نفسه الطاعون؛ أو بأنه مرضٌ عام، ولم يفرّقوا بينهما البتة، كما هو الحال لدى كلّ من (الجوهري) في الصحاح، وابن منظور في (لسان العرب) ، والفيروزآبادي في (القاموس المحيط) أما من الناحية الاصطلاحية في مجالنا التداولي؛ لعلّ من أشهر التعريفات الاصطلاحية؛ ما ذكره صاحب كتاب (غريب الحديث) بقوله: "المرض العام والوباء الذي يفسد له الهواء، فتفسُد به الأمزجة والأبدان" ، أما العسقلاني فقد ذكر تعريفه في فتح الباري بقوله "والحاصل أن حقيقته ورمٌ ينشأُ عن هيجان الدم، أو انصباب الدّم إلى عضو فيفسده، وأن غير ذلك من الأمراض العامة الناشئة عن فساد الهواء يسمى طاعونًا بطريق المجاز، لاشتراكهما في عموم المرض وكثرة الموت" ، وإذا تأملنا مصطلحان ألمح إليهما العسقلاني وهما (الأمراض العامة) و(فساد الهواء) اتضح لنا ما أثبتته الدراسات الحديثة في أفنان شرحها لمصطلح علم الأوبئة بأنه علم يعتني بدراسة الحالات الجماعية للعدوى وليس بالحالات الفردية (ولا تحصل العدوى إلا بعد حصول فساد في الهواء، أو ما يقاربه له من ملامسة؛ يعود أصلها إلى محل من محالّ الحواس انتهاء)، وليس إلى هذا الحد فقط، بل يمكننا حتى أن نقارب بين تعريف ابن حجر العسقلاني وبين تلكم الاهتمامات التي يركّز عليها علم الأوبئة، فعلم الأوبئة يركز اهتمامه على شقين اثنين: الأول: دراسة انتشار المرض في الأماكن المحددة وبين الفئات المختلفة،

والثاني: دراسة العوامل المؤدية لانتشار هذه الأوبئة، نستمد مقاربتها تأصيلا من قول ابن حجر (والحاصل أن حقيقته ورمٌ ينشأُ عن هيجان الدم، أو انصباب الدّم إلى عضو فيفسده) وهذا في حاصله تكييف للفئات المصابة بالمرض، وتكييف الفئات مساعد على دراسة انتشاره، وفي قوله : (ولا تحصل العدوى إلا بعد حصول فساد في الهواء) إشارة إلى المرتكز الثاني.

2- مصطلح الجامعة الإسلامية : الحضارة هي نظام منبعث من التّفكير البشري، مُساوِقٌ للتّاريخ، ذلك التّفكير البشري الذي يقسمه على شطرين[1]:

أ. تفكير مقدّس: وهو التّفكير المختص بموضوع وجود الله تعالى وصفاته، وصفات رسله، من كونها تفكيرا، تُتلقى مبادئه، وأوائله بصورة التقليد والتّسليم للرّسول الموثوق بصدقه، وبنصحه فيما يأمر به، ثمّ تقام الأدلة عليها بعد تلقّيها.

ب. تفكير اجتماعي: وهو التفكير فيما يرجع إلى الشؤون في الحياة العاجلة والآجلة لتحصيل العلم بما يجب سلوكه للنّجاح في الحياتين، فهو تفكير اجتماعيٌّ لأنّ إصلاحه من أهم ما قصدته الشّريعة الإسلامية في إقامة نظام الاجتماع من طريق صلاح الفرد.

المحور (5) : الدراسات التراثية التاريخية في الأوبئة والجوائح

اعتنت الجامعة الإسلامية في قرون متقدّمة بالتّأريخ للأمراض والتداوي، ونوازل القحط والمجاعات، واختلفت الاتجاهات في هذا الباب بين من أسس عمله على نطاق واسع يشمل أبوابَ متعدّدة ضمنّها ما وصله من أخبار حول الجوائح والأوبئة، وبين من اقتصر على ذكر سُبُل التداوي في نطاقة النبوي، والتعريف الديني للأمراض وطُرُق التعافي منها، وبالأخص ما خلّفه ابن سينا والرازي، وما ضمنه عبد الله محمد الحبشي في كتابه معجم الموضوعات المطروقة، وكتابه الثاني جامع الشّروح والحواشي وغيرهم كثير.

أولا : لعلّ أول دراسة تراثية كتبت في الطاعون ابن أبي الدّنيا أبو بكر (ت 281هـ) صاحب التواليف المشهورة في كتابه الطّواعين، وكتابه المرض والكفارات؛ ومن بين ما يلمحُ في منهجه العلاجي ما تختصره النقطة التالية :

---

[1] أصول النّظام الإجتماعي في الإسلام، مرجع سابق، ص47-48

1)- العمل على توعية النّاس حال حلول الوباء بترقية الوازع الإيماني؛ والعقائدي، وبعث إحيائه وتفعيله، وكم من مرض أليم علاجه تقوية المناعة، ولا تقوى المناعة الصّحية إلا بتقوية المناعة الذوقية الروحانية فقد ضمن كتبه أحاديث نبوية كثيرة داعية للتصبّر، والاحتساب، والتوكيل على الله، ونذكر على سبيل المثال استشاهده بقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا سبقت للعبد من الله منزلةً لم يبلغها بعلمه، ابتلاه الله في جسده، أو في ولده، أو في ماله، ثم صبّره حتى يُبَلّغه المنزلة التي سبَقت له من الله".

ثانيا: دراسة هبة الله البغدادي (ت 495هـ) وهو فيلسوف وطبيب عربيّ، صنّف كتابًا سمّاه (المغني في تدبير الأمراض ومعرفة العلل والأعراض) حقّقه : د. محمد ياسر زاكور، والكتاب غزير المادة، عظيم الفائدة، نافت فصوله على المئتين، وأبوابه بلغت تسعة وأربعين بابًا، ومؤلّفه واحد من مفاخر الأطباء الذين قلّ أن يجود بهم الزمن.

ثالثًا : مما نقف عليه أيضا من مصادر اعتنت بالحديث عن الأمراض والأعراض المختلفة في مدونات الجامعة الإسلامية مخطوط بالمكتبة الوطنية الفرنسية، القسم العربي، رقم 2691 عنوانه : (الأدعية المنتخبة في الأدوية المجربة) لعبد الرحمن بن محمد البسطيمي، حيثُ قسّمه مصنّفه إلى ستة أبواب، اعتمد فيها على الكتب الحديثة وأمهات الكتب الطبية كالقانون لابن سينا، الجامع لمفردات الأغذية والأدوية لابن البيطار، ومما يميزه في التصنيف في أسباب العلاج إضافة للسبل الوقائية المذكورة آنفاً:

1)- تشّوفه للنظرية الوقائية قبل وقوع الطاعون؛ فعدّد أنواع الطّواعين التي وقعت في التاريخ الإسلامي، إيعازًا منه للذهنية الفكرية حتى تتّقد وتبحث في طرائق العلاج.

2)- ممارسته للنظرية الوقائية بعد وقوع الأوبئة والطاعون، بتعداده لبعض الأعشاب والأدوية التي من شأنها أن تعين المصاب على دفع الوباء (قشور الرمان، القثاء، الخيار..).

ثالثاً: العسقلاني والكتابة التاريخية

إنّ كل دارس للعسقلاني ، يُدرك أهمية الخطّ الفكري الذي تموقع فيه، إذْ لا يَجِد مَن له أدنى تأمّلٍ صُعوبةً في معرفة أنّ الخطّ الذي أسّس له كبارُ المؤرّخين والمعتكفين على كتابة التاريخ الإسلامي في الحضارة الإسلامية كابن كثير والطّبري وغيرهم قد اجتمعت روافده في العسقلاني ، فإذا كان من قَبله عنَوْا جُهدهم في تقصّي الأخبار وعكفوا وقتهم على

تحليلها، فإن العسقلاني هو مستأنف هذه الرّيادة في الناحية الاجتماعية، انطلاقاً من فكره الجامع بين البعد التراثي الديني والسَّنَني، والبحث عن الظّواهر الاجتماعية وما يعتريها من تغيرات، أو يعتورها من تحدّيات، و قد رتّب العسقلاني كتابه على خمسة أبواب وخاتمة وفصل قصير، فذكر في الباب الأول مبدأ الطاعون، ثم عرّف بالطّاعون، وخصص الباب الثالث للأدلة التي تثبت أنه شهادة للمسلمين، ثم تحدّث في الفصل الرابع عما يتعلّق بالطاعون من أحكام، ثم ذكر في الباب الخامس، ما يجب على الناس أيام الطاعون.

المحور (6): حوصلة نهائية .

الناظر في التراث العربي الإسلامي الذي يختص بمدارسة الأوبئة والجوائح في الجامعة الإسلامية، يتّضح له أن مؤلفوها سلكوا منهجان في التدوين:

المنهج الأول: النظرية الوقائية الاحترازية؛ وهي نظرية عامة انتهجها مدونوا التراث الإسلامي بغية إعلام القارئ معالم الوقاية من الأوبئة، بمعرفة أسبابها، وانتهاج سبل الكشف المبكر عنها، و الاحتياط في عدم الأخذ بالأسباب المفضية إليها ابتداء بالابتعاد عنها، وعدم الاقتراب إليها.

المنهج الثاني: النظرية الاحتياطية؛ ولنا أن نمثل جانبًا واحدا منها، وهو تقوية المناعة عن منحيين: المنحى الأول: تقويتها بتقوية أُصُر الاعتقاد، الدّعاء، التوكل، تصحيح النوايا، المنحى الثاني: الاعتماد على تقوية الجسم بالأغذية والأطعمة التي يرجى الشّفاء بما فيها من فوائد.

المنهج الثالث: التدابير الوقائية بعد وقوع الفعل: وذلك متمثّل في ما يجب فعله إن نزل الطاعون.

مما يتبينُ في خلاصة هذه الدراسة أن الأزمات الصحية والأوبئة كانت من إحدى الأركان الأساسية التي تأسست على وفقها الحياة العامة في زمن الكتاب، لذا نجد المؤلّف (العسقلاني) يتجاوز مسرحة الأحداث إلى التأصيل لها فيذكر مثلا (اختلاف الصحابة في البلد الذي يقع فيه الطاعون) وأخبار السّابقين كإجراء وقائي احترازي للحفاظ على سلامة السكان من منطلق شرعي، ويتفاعل مع الأحداث سواء بعلمه أو دون علمه.

واستنادًا إلى ما سبق لا يعدو أن نقول أن الأوبئة في القرن 9 هجري كانت تجسيدا لشكل من أشكال البؤس الإنساني الذي تولّد في ظروف حياة قاسية.

(الحمد لله رب العالمين)